الوجه الخفي لقضية الحجاب بفرنسا : هل تدفع اللادينية الفرنسية أبناء المسلمين إلى اعتناق المسيحية؟

24-12-2003

فهل أصبح مسلمو فرنسا وأبناؤهم وبناتهم بين أمرين أحلاهما مر: إما أن "يتعلمنوا" بترك الحجاب أو يلتحقوا بمدارس الكاثوليكية ليضمنوا تعليما مناسبا؟ وهل توزعت الأدوار بين اللادينين والدينين، وبين علمانية "محاربة مضطهدة" وتنصير منظم؟ وهل أصبحت الأجيال القادمة تحت رحمة التجمعات السياسية المتصارعة داخل الملعب الفرنسي تتقاذفها الأرجل والأيدي من معسكر إلى معسكر؟

بقلم الحسن سرات

ذكرت الشهرية الفرنسية المتخصصة في قضايا التربية والتعليم (لوموند دو ليدوكاسيون: عالم التربية) في عددها لشهر ديسمبر 2003 أن نسبة تسجيل أبناء المسلمين بفرنسا في المدارس الكاثوليكية عرفت تصاعدا صاروخيا خلال هذه السنة، وأنها مرشحة لمزيد من الارتفاع في الأعوام المقبلة. ففي ملف مطول عن قضية الحجاب بالديار الفرنسية (ص 48 إلى ص 53)، كشفت المجلة المذكورة في تحقيق حول المسلمين الذين يسجلون أبناءهم في المؤسسات التعليمية المسيحية أن الموسم الدراسي الحالي(2003/2004) شهد ارتفاعا كبيرا في عدد التلاميذ المسلمين المسجلين في المدارس الكاثوليكية الحرة بنسبة اثني عشر ألف طفل إضافي (12000) بالمقارنة مع الموسم الماضي، وأن هناك عشرين ألف (20000) طلب للتسجيل بقيت في لائحة الانتظار.

وأضافت الشهرية ذاتها أن المسلمين يفضلون تسجيل أبنائهم في المدارس المسيحية الخاصة تجنبا لمشاكل الطرد والاضطهاد التي يلقونها في المدارس الحكومية العمومية بسبب الحجاب، رغم محاولات التخفيف من شكل سترة الرأس وحجمها. ومن الأرقام التفصيلية المذهلة التي ساقتها مجلة "عالم التربية" ما نشرته من نسب مئوية للتلاميذ المسلمين مقارنة مع أطفال من ديانات أخرى. فمع أن الإحصائيات الرسمية حول هذه الظاهرة عبر التراب الفرنسي كله غير متوفرة، إلا أن المجلة استطاعت الحصول على أرقام ومعطيات من المؤسسات التربوية التي أجري التحقيق فيها. وهكذا ذكر التحقيق أن النسب تختلف من مؤسسة إلى أخرى: ففي مدرسة "الأم تيريزا" الموجودة بالمناطق الفقيرة بمدينة "روبيه" تصل نسبة التلاميذ المسلمين إلى 80% من المجموع العام. وعلى مقربة منها، في ثانوية "جيلبير سيسيرون" يشكل المسلمون ثلث التلاميذ، وفي ثانوية "سانت مورون" بمدينة "مارسيليا" تصل النسبة إلى 90%. بل إن بعض المؤسسات تصل فيها النسبة إلى 100%، حسب التحقيق ذاته، كما هو واقع في مقاطعة "لالوار" وهي منطقة يتركز التعليم الكاثوليكي فيها بقوة منذ زمن بعيد.

تجدر الإشارة إلى أن قانون "دوبري" لسنة 1959 المنظم للتعليم الحر يلزم المؤسسات باستقبال التلاميذ بغض النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية والثقافية والدينية. كما أن المدارس الكاثوليكية والبروتستنتية واليهودية تغطي كل التراب الفرنسي وتستقبل العديد من الأطفال.

وليس الاضطهاد المسلط على المحجبات هو السبب الوحيد في هذا التحول بين المسلمين في فرنسا، بل إن هناك سببا آخر كشف عنه الآباء والأمهات الذين أجري التحقيق بينهم، إذ عبر غير واحد منهم أن الهروب من حالة "الحصار التعليمي" أو "الغيتو المدرسي" من أهم الأسباب. ويقصد بـ"الحصار التعليمي" أو "الغيتو المدرسي" حالة العزلة التامة التي يعيشها أبناء المسلمين بفرنسا في مدارس يشكلون أغلبيتها المطلقة أو الكاسحة فيبقون ذلك منعزلين عن المجتمع الفرنسي والحياة العامة كأنهم في بلدان المغرب العربي أو شمال أفريقيا. أدهى من ذلك وأمر ما ذكره بعض الأولياء من طرقهم لأبواب المدارس اليهودية بحثا عن مقعد تربوي ومدرسة عصرية، غير أن صعوبة الاختبار والتشدد في شروط التسجيل والقبول حالا دون ذلك.

وإذا علمنا أن معظم هذه المدارس تنتشر في المناطق الهامشية الفقيرة حيث كثافة العرب والمسلمين، فلن نجد مفرا من التساؤل عن حال المسلمين البئيس في ديار "الحرية والإخاء والمساواة"، وما يجري من إقصاء وتهميش واضطهاد لهم تحت ذريعة "حماية العلمانية الفرنسية من "تهديد وعدوان" قطعة الحجاب، وعلاقة ذلك بارتفاع نسبة تسجيل الأطفال المسلمين في المدارس الكاثوليكية. فهل أصبح مسلمو فرنسا وأبناؤهم وبناتهم بين أمرين أحلاهما مر: إما أن "يتعلمنوا" بترك الحجاب أو يلتحقوا بمدارس الكاثوليكية ليضمنوا تعليما مناسبا؟ وهل توزعت الأدوار بين اللادينين والدينين، وبين علمانية "محاربة مضطهدة" وتنصير منظم؟ وهل أصبحت الأجيال القادمة تحت رحمة التجمعات السياسية المتصارعة داخل الملعب الفرنسي تتقاذفها الأرجل والأيدي من معسكر إلى معسكر؟ وهل اللادينية الفرنسية تضغط على المسلمين بإشعال الضوء الأحمر أمام الحجاب في المدارس الحكومية فلا يجدوا وجهة غير المدارس الكاثوليكية ليجلس الحجاب تحت راية الصليب يتلقى دروس العلوم والحياة؟ وكيف سيحل المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية هذه المشاكل الموجعة؟ وهل لديه الإمكانيات المادية والمعنوية ليقوم بذلك؟.

للعودة للأعلى